الباب التاسع

طبيعة العقل

والآن فلنحاول أن نرسم صورة للعقل كما يراه أصحاب التحليل النفسى .

العقل ينقسم إلى جانب شعورى وجانب لاشعورى . أو كما نسميها باختصار الشعور واللاشعور .

والجانب الشعورى هو الجانب الذى نشعر به ، هو ذاتنا التى نتكلم عنها عندما نقول "أنا" أريد وأنا أعمل وأنا أفكر أو هو مايسمى اصطلاحا بالأنا (١) . وأما الجانب اللاشعورى فهو يشمل مبدئيا النزعات الغريزية التى هى فى محاولة دائمة للتعبير والوصول إلى الشعور كما ذكرنا . فالعقل اذن ينقسم إلى الذات وإلى النزعات الغريزية ، والأولى وهى الذات شعورية فى مجموعها والثانية وهى النزعات لاشعورية . وقد قلنا إن الذات أو "الأنا" شعورية فى مجموعها ولم نقل إنها شعورية إطلاقا ، لأنها فى الواقع تحتوى على جزء لاشعورى هو الجزء الذى يقوم بالكبت ، فالكبت عملية لاشعورية يقوم بها الجانب اللاشعورى من "الأنا" وهو الرقيب .

والصورة الأولية للعقل هى صورة النزعات الغريزية التى يتكون مجموعها من الطاقة الغريزية الأصلية والتى يطلق على مجموعها اسم "الهى" (٢) وتنشأ "الأنا" من "الهى" عن طريق الاصطدام بين هذه الأخيرة وبين العالم ، ثم تعمل "الأنا" على كبت ما يبقى من "الهى" فيصبح لاشعوريا ، وهذا هو منشأ "اللاشعور" وتصبح "الأنا" هى المتصلة بالعالم الخارجى كما يبدو عن طريق الحواس . وعلى ذلك فإنها تصير الواسطة التى يكيف بها الإنسان نزعاته طبقا لهذا الاتصال .

---

(١) Ego

(٢) Id ومعناها باللاتينية "هى"

والمبدأ الذى يسود "الهى" هو مبدأ اللذة[1] فهى ترمى إلى الإشباع واللذة، وبما أنه لا اتصال بينها وبين العالم الخارجى أو المجتمع، فإن جريها وراء اللذة مطلق، لا يقيده قيد ما من وجهة نظر هذه النزعات، أما الذات فتحاول أن تحل محل هذا المبدأ مبدأ "الواقعية"[2] أى مبدأ الاعتراف بالعالم الخارجى "الواقعى" ومراعاته، وقصر تحقيق اللذة على ما لا يتعارض مع هذا العالم.

فادراك الواقع فى العالم الخارجى هو الذى يميز الأنا بينما الرغبة وطلب اللذة وحدها هى التى تحرك الهى.

ويمكن أن يقال إن الذات تمثل ما نسميه عادة العقل أو الحكمة، بينما النزعات تمثل ما نسميه الشهوة.

وموقف "الأنا" من "الهى" كموقف الراكب من الفرس، يمسك بأعنته ويوجهه ويستخدم قوته فى الوجهة التى يريدها، ويكبح جماحه إذا ثار. ولكن هناك فرقا بين الحالتين، فالراكب يستخدم قوته الذاتية فى توجيه الفرس، أما "الأنا" فتشتق قوتها من قوة "الهى"، كما أن نزوات الفرس شىء خارجى بالنسبة للفارس لا يحس إلا بآثارها، أما نزوات "الهى" فهى تبدو "للأنا" كأنها نزعاتها الخاصة، وبذلك يكون الإنسان كما لو كانت "أناه" تكبح جماح شهواتها الخاصة، ولكن الشهوات فى الواقع مشتقة من "الهى"[3].

"الأنا" تخشى على نفسها كما يخشى الراكب نزوات "الهى"، لأن هذه النزوات قد تعرضها لأخطار لا حصر لها، تأتى من المجتمع الذى لا يرضى عن تحقيق النزوات كما هى.

ويتضح ذلك إذا عرفنا أن المجتمع لا يقبل تحقيق شهوات الإنسان على إطلاقها، وأنه قد حصن نفسه ضد إطلاقها بالقوانين والتقاليد والعادات

---

(1) Pleasure Principle

(2) Reality Principle

(3) Freud : The Ego and The Id, 1945, p. 30

والعرف والذوق . . . إلى آخر هذه المفهومات ، وأن النزعات ترمى إلى ما هو ضد هذه القيود ، والأنا تخشى انتقام المجتمع فتكبت من نزعات الهى ما يتعارض معه ولا تسمح إلا بما يتمشى معه ، ولكن هذا ليس كل شىء فى تقسيم العقل ، لأن هناك جانبا آخر منه على أعظم درجة من الأهمية . هذا الجانب هو جانب لاشعورى أيضا يسمى "بالأنا العليا" أو "الضمير اللاشعورى[1]" فاحتكاك الأنا بالبيئة أو عالم الحقيقة والواقع ، يؤدى إلى أن ينفرد منه بالتدريج جزء يعتبر فى الواقع ثورة على الذات ، فالذات باحتكاكها بالعالم الخارجى أو الحياة الواقعية تكتسب وجهة نظر عملية ، وتترفق أحيانا فى معاملة النزعات والرغبات المكبوتة ، فهى كالحكومة الضعيفة ، كثيرا ما يكون ضعفها سببا فى ظهور حزب متطرف لا يرضى إلا باتخاذ الوسائل القاسية لمعالجة ما يظهر من المخالفات ، كذلك حالة العقل فان جانبا من "الأنا" ينفرد ويصبح لاشعوريا ، وهذا الجانب ينتزع من الحياة الواقعية قوانينها وتقاليدها ، ويحولها إلى مثل عليا يطالب "الأنا" بتحقيقها ، وهو يطبق هذه القوانين والتقاليد تطبيقا هو فى منتهى الصرامة والقسوة ، ولا يعرف التساهل ، وهو يطلب العقوبة على مجرد النية كما يطلبها على العمل . وهو دائم الضغط على "الأنا" مطالبا إياها بأن تكون صارمة فى معاملة "الهى" .

ويفهم مما سبق أن "الأنا" العليا لا تعمل بنفسها وإنما تعمل عن طريق "الأنا" . وتتكون "الأنا" العليا من الأنا عن طريق الأثر الذى تتركه علاقة الأبوين بالطفل فى "أناه" ، "والأنا العليا" تمثل أهم ما وصل اليه الفرد والنوع الانسانى من ناحية الحضارة والخلق . وهى تحل محل الأبوين فى توجيه "الأنا" توجيها دائما ، فهى بديل داخلى من الأبوين يمتاز عنهما بأنه دائم ، وبأنه لا يعرف التساهل ، ويعمل دائما ضد النزعات ، ولا يرضى عادة عن أى تساهل تبديه "الأنا" نحوها .

وعند نشوء "الأنا العليا" يصبح واجب "الأنا" مزدوجا ؛ فهى لا تقتصر فى سماحها أو عدم سماحها للنزعات بالتعبير على مراعاة العالم الخارجى ، بل تراعى أيضا

---

(1) Super-Ego

معارضة "الأنا العليا"، وعلى ذلك تتضاعف القيود على النزعات، قيود مشتقة من العالم الخارجي، وأخرى أشد وأعنف مشتقة من "الأنا العليا".

ومن الغريب أن التنازل عن الرغبات تحت ضغط العوامل الخارجية يكون دائما مقترنا بالألم، أما التنازل عنها تحت ضغط الأنا العليا فيكون له أثر آخر، فالألم الناتج عنه يقترن به شعور باللذة والسرور [1]، شعور بالفخر الذي يقترن بإتيان العظيم من الأعمال. وليس ذلك غريبا لأن "الأنا" العليا هي بديل الأبوين، وكما نشعر بالسرور والفخر إذا تغلبنا على نزعاتنا لإرضاء الأبوين، فنحن نشعر بنفس الشعور إذا فعلنا ذلك إرضاء للأنا العليا، فالأنا ترمي في الطفولة إلى الحصول على محبة الأبوين وتشعر باللذة لذلك بصرف النظر عما قد يكون هنالك من الألم الناتج عن قمع النزعات.

وكذلك الأنا تشعر برضاء الأنا العليا شعورا مصحوبا بالراحة والرضاء، أما إذا أغضبتها فإنها تشعر بغضبها شعورا يترجم إلى ما نسميه "تأنيب الضمير". وعند ما تتغلب "الأنا" على "الهي" تنتظر أن تنال جزاءها من "الأنا العليا"، بأن تنال نصيبا أوفى من المحبة، وهذا هو الذي يشعر "الأنا" بالفخر.

وكثيرا ما وجه الناقدون إلى التحليل النفسي أنه قد أغفل القيم العليا الخلقية والروحية. وهذا غير صحيح لأن التحليل النفسي قد نسب عملية الكبت إلى النزعات الخلقية "للأنا". ثم إنه قد بين أهمية الأثر الخلقي للأبوين في نشوء هذه الوحدة الخلقية الدائمة في عقل الإنسان وهي "الأنا" العليا.

وينسب فرويد نشوء هذه الصفات في "الأنا" العليا، إلى أنها تكتسب بعض هذه الصفات من صلتها بتطور الإنسان في مختلف العصور، فتتجمع فيها مؤثرات الحضارة والرقي الخلقي على مر العصور، وهذا هو ما يجعل لها القدرة على أن تحيل النزعات إلى أسمى وأعلى ما في الإنسان.

وهكذا نرى أن العقل يحوي هذه الجوانب الثلاثة: الهي، والأنا، والأنا العليا، أما الهي والأنا العليا فلا شعوريه، وأما الأنا فأغلبها شعوري.

---

(1) Freud: Moses & Monotheism, p. 184.

وعلى الأنا أن تسلك طريقها بين مطالب البيئة أو الحياة الواقعية ، و بين مطالب " الهى " فاذا عالجت الأمر علاجا وسطا ، فهى معرضة لمحاسبة الثالث وهو " الأنا العليا " التى تشبه فى تصرفها القوة الشعورية التى نسميها بالضمير ، غير أنها تختلف عنها فى أنها لاشعورية وصارمة أشد الصرامة لاتعترف بالواقع ولا تعرف التساهل ، ومُثلها العليا أكثر نظرية وتطرفا مما نتصوره عادة .

ولهذا قال فرويد : "إن الإنسان أحط بكثير من الوجهة الأخلاقية مما يتصور (بالنسبة لنزعاته الغريزية) وهو فى الوقت نفسه أرقى بكثير مما يتصور (بالنسبة لذاته العليا ومبادئها) " .

والحياة العقلية السليمة هى التى تسير فى توازن حكيم بين هذه المطالب والقوى المتناقضة . أما إذا كلفت إحدى هذه القوى بشكل واضح على الأخرى ، فإن سلوك الشخص يصبح متطرفا فى إرضاء هذه أو تلك ، أو متأرجحا بين هذه وتلك ، أو قلقا أشد القلق خوفا من تغلب هذه أو تلك عليه .

والقلق [1] وما يصاحبه من خوف وغيره من مظاهر الصراع النفسى ، والاضطراب النفسى أو " العصاب " [2] هو مظهر للفشل فى إيجاد التوازن بين هذه القوى . فالشخص المصاب بالاضطراب شخص قد فشلت ذاته فى إيجاد التوازن بين هذه القوى ؛ فأصبحت حياته كدرة تعسة ، وأصبح قلقا غير مرتاح إلى حالته ولكنه متيقظ لها أشد التيقظ يحاول أن يوجد التوازن الذى فقده بمختلف الوسائل .

وقد يبلغ اختلال التوازن درجة خطيرة ، فيفلت القياد كلية من الأنا ، و يصبح الشخص غير عالم بما فى حالته من شذوذ ، وهذا مايسمى بالجنون أو الاضطراب العقلى أو "الذهان" [3] . والفرق الأساسى بين الاضطراب النفسى أو العصاب والاضطراب العقلى أو الجنون ، هو أن الشخص فى الأول عارف بحالته وساع فى إصلاحها بنفسه أو عن طريق العلاج ، وقادر على الحكم على تصرفاتها ومعرفة الخطأ والصواب فيها — أما فى الثانى فهو لايرى فى نفسه شذوذا ، و يصبح فى حالة يفقد معها القدرة على الحكم على تصرفاته بالخطأ والصواب — أى يفقد القدرة على نقد سلوكه فقدانا تاما .

---

(1) anxiety (2) Neurosis (3) Psychosis